

ذنوب الخلوات تذهب بالحسنات



الجمعة 30 مارس 2018 06:03 م

كما أن للعمل الصالح في السر والطاعة التي تكون بين العبد وربّه ولا يعلم بها أحد من الناس "الخبئة الصالحة"...مكانة عظيمة عند الله ومنزلة رفيعة يجد العبد أثرها وأجرها أحوج ما يكون إليها يوم القيامة فإن للذنوب في الخلوات والإصرار على مناجزة الله بالمعاصي كلما خلا بنفسه وغابت عنه أعين الناس أثرها السلبي الخطير على عبادات العبد وطاعته وحسناته .

يكفي أن يصغي المسلم جيدا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يبين فيه خطر ذنوب الخلوات ومآلها الكارثي على مستقبله الحقيقي الأخروي ليدرك ضرورة الإقلاع عن هذه الآفة قبل فوات الأوان .

ففي الحديث عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أَقْتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا) قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : (أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا) سنن ابن ماجه برقم/4245 وصححه الألباني .

قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله : "الحذر الحذر من الذنوب خصوصا ذنوب الخلوات فإن المبارزة لله تعالى تُسقط العبد من عينه وأصلح ما بينك وبينه في السر وقد أصلح لك أحوال العلانية " صيد الخاطر ص 207 .

أخطر ما في ذنوب الخلوات وقوع العبد بجريرة جعل الله تعالى أهون الناظرين إليه وسقوطه في معصية تعظيم شأن الناس والخشية منهم من أن يروه على معصيته وذنبيه على حساب مراقبة الله وعظمته وخشيته في قلبه ، الأمر الذي قد يقدر في صدق إيمانه ويمس حقيقة يقينه بإطلاع عليه في سره كما علانيته .

قال ابن عباس رضي الله عنه : يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ لَا تَأْمَنْتَ مِنْ شَوْءٍ عَاقِبَتِهِ وَلَمَّا يَتْبَعْ الذَّنْبُ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَلِمْتَهُ فَإِنَّ قَلَّةَ حَيَاتِكَ مَعْنَى عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشَّامِلِ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَمِلْتَهُ وَخَوْفُكَ مِنَ الرَّيْحِ إِذَا حَرَّكَتْ بِسُرِّ بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَا يَضُرُّكَ مُؤَادُّكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَلِمْتَهُ (حديث موقوف / حلية الأولياء برقم/1180

ومن هنا يمكن فهم عقوبة إحباط أعمال صالحة ونسف عبادات وطاعات كجبال تهامة وجعلها هباء منثورا كجزاء على ذنوب الخلوات كما جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه إذ الأمر هنا يتعدى حدود مجرد الذنب العابر إلى عتبة النفاق و داء ومستنقع الرياء في الأعمال .

الوصف النبوي الدقيق لسمت وحال أولئك يجعلهم أقرب إلى المنافقين بأعمالهم المرآئين بطاعتهم منهم للمخلصين المبتغيين وجه الله تعالى بها ، والدليل على ذلك أنهم "إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها"، والانتهاك قرين الاستحلال والأمن من مكر الله وعقوبته ، وهو ما يتنافى مع حال المؤمن الذي وإن غلبت عليه شهوته وأوقعته بالمعصية والذنب فهو لا يعصيه مستحلا نواهيهِ و زواجره وإنما يعصيه تحت وطأة غلبة الشهوة وهزيمته أمام إغوائها وإغرائها ، وضعف ارتقائه لمقام الإحسان وحسن مراقبة مالك الأكوان .

لا شك أن تحذير المؤمن من الوقوع في ذنوب الخلوات والظهور بمظهر العابد الناسك أمام الخلق والناس بينما ينتهك محارم الله في خلواته ويتجرأ على معصيته حين يكون وحده لا يوعي أن المجاهرة بالذنوب وإعلان المعصية واقترافها أمام أعين الناس دون حياء وخجل منهم أو خوف وخشية من الله مسموح به في دين الله ، فالمجاهر بالمعصية أمام إثميين : إثم المعصية ذاتها وإثم المجاهرة بها .

ففي الحديث الصحيح عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (كُلُّ أَقْتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُضَبِّحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا مُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ

إن من سمات أصحاب النفوس الطاهرة والقلوب النقية والأفئدة التقية استواء سريرتهم وعلايتهم , فحالهم أمام الناس كحالهم في خلوتهم , وخشيتهم من الله في الظاهر كخشيتهم منه في الباطن , لا يفسدون طاعات العلانية بمعصية السر ولا يحبطون أعمالهم الصالحة الظاهرة بذنوب الخلوات الخفية .

قال مُطَرِّف بن الشَّخِير: "إِذَا اسْتَوَتْ سريرة العبد وعلايته؛ قال الله عزَّ وجلَّ : هذا عبي حَقًّا" .

قد لا تكون عقوبة ذهاب الحسنات الكثيرة وإحباط الأعمال الصالحة الوفيرة يوم القيامة هي الجزاء الوحيد لمقترفي ذنوب الخلوات , فهناك التهديد بعقوبة دنيوية عاجلة قد تكون رادعة للمبتليين بهذا الداء ألا وهي الفضيحة في الدنيا بإظهار ما أسروه وكشف ما أخفوه عن أعين الناس فقد ورد في الأثر عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : ما أسرَّ عبدٌ سريرة إلا أظهرها الله على قسَمَاتٍ وجهه وقلبات لسانه إن خيراً فخير وإن شراً فشرُّ .